مســـكين ... !

للاستاذ صلاح الدين المنجد

جلس بسام على صخرة مشرفة على طريق القرية الضيق ، يلهو بقذف الحصى ، ويرنو إلى الأضواء الراعشة ، وهي تخفق في السهل البعيد . وكان الناس قد آووا إلى دورهم ، مذ طفلت الشمس للمغيب . فتلك كانت عادتهم في هذا المصيف المتوارى في ثنايا الجبال . وكانت الطرقات قفراً ، والليل هادئاً ، والقمر يقطع السماء بدلال واطمئنان ، تحف به النجوم باسمات ، يتنادين ويتغامزن ، كأنهن حسناوات يتبعنه في لجة البحر ...

وطرق سمعه صوت ناعم رخيم نبهه ، فأرهف أذنيه ، وحدق بعينيه ، ثم قفز من الصخرة ، يتلفت يمنة ويسرة . فلمح في طريق تخرج من سفح الجبل ، فتراءى على صدره ، وتغيب في قمته ، شبحين ينحدران وسط الظلام ؛ في مشيتهما ميسان وفتور . وقد استند رأس برأس يرفق ، واشتبك ذراع بذراع بعنف ، وغرقا في تمتمات وغماغم ، شغلتهما عما يحيط بهما ، من طبيعة وسنى ، وقر ضاحك ، ونسيم رطب ، ونجوم ساطعات .

وتقدم الشبحان يميسان . فخفق قلب بسام ، وظن أنه حبيب يغازل فتاته في هذا الليل الوسنان . فخطر على قلبه أن يعبث بهما فيقلد عواء الكلاب ليرعبهما ، ولقدم ... لولا أن حدق ثم حملق ، ثم بلع ريقه ، وخفق قلبه ، وذهل ... لقد لمح ، تحت ضوء القمر ، حسناءه ، زهرة الياسمين ، التي فتنته ذات يوم ، في قاعة الدرس ، إنه يوم مسحور ... أبصر به جمال الحياة يشع في عينين زرقاوين كالبحر ، وشعر أشقر مجدل كسنابل القمح ، وفم رقيق كأنه الجرح يقطر الدم ، وينفح العطر ... فراح هيمان بها ، لا يصحو من حبه ولا يفيق .

وفار الدم في عروقه ، ورمى بحصوات كانت في يده . وساءل نفسه عما تفعله الآن ، وقد انتشر الليل ؟ ترى أهي تحب فتى غيره ؟ وكيف تحب ، وهي له وحده ؟ . وهم أن يهجم على هذا الذي معها فيهشم عظامه ، ويسحقه . فاقترب متيظاً ... ولكنه ما لبث أن تبين أن الذي معها فتاة ، وليس فتى . فشعر بتيار بارد يجري في عروقه ، وتصبب العرق من جبينه ... وبهت ...

وضحك ، بعد برهة ، من نفسه كالمجنون . وعاد إلى الوراء خطوات ، فاختفى وراء صخرة ضخمة ... وحدثته نفسه أن ينتهز الفرصة فيكلمها . فهذه فرصة لن يجد مثلها . الجو صفو ، والحب شديد ، والرقباء بعيدون .

وهو ما انفك ، مذ عرفها في المدرسة ، يحاول الكلام معها ويود التقرب منها ، فلا يستطيع . فكان يكتم هواه ويتجلد . وربما زور في نفسه جملا حلوة ، وكلمات ناعمات ، آملا أن تتصل بينهما المودة ، فيحدثها بها ... ولكنه كان يفشل دائماً فيما كان يحاوله . فقد كان أستاذه القصير يقلقه ، وكان رفيقه الشبيخ المتعصب للدين يزعجه . فهؤلاء أوانس يحرم على الشبان كلامهن ، أو النظر إليهن .

وشعت فكرة التحدث إلى حسنائه ، في نفسه كالشمس . وشعر بقوة تدب في جسمه . وأخذ قلبه يخفق ... ورفع رأسه ليرى الشبحين ... وهم أن يوقفهما ، فقد اقتربا منه . وظن أنها ستفرح بلقياه ... فلقد كان يخيل إليه أنها تحبه ، ودلائله على هذا لا تعد . كم مرة عمد إلى كتب الأدب ، فاستفتى صفحاتها ، فكانت تغريه . كم مرة فتح دواوين الشعراء ، ليعلم (حظه منها) فكانت الأشعار تبشره . حتى لو كانت القصائد على غير مايشتهي . إنه كان يقنع نفسه أن الشاعر كان يقصد غير ما قال ... وكم مرة نظرت إليه نظرة ، قد تكون عابرة ، فقضى الليالي يفسر النظرة ويقول لنفسه : إنها لتحبني ... فكيف لا تفرح الآن ، إذا رأته أمامها ... إنها لا تفرح فقط ، بل ستلقي بنفسها عليه ، وستقول له خذني ... فهأنذى بين يديك ... !

وتقدمت زهرة الياسمين ، فتبين من معها . إنها رفيقتها بنفسجة فسر . ترى من يجامل منهما ؟ وكيف يغازل زهرة الياسمين ؟ ألا تغار هذه البنفسجة ؟ وقال : اوف ، هذه مشكلة جديدة ... إن زهرته قد تنكره أمام صاحبتها ، وقد تسمعه قارس الكلام ... ولكن كيف يقدم لها ما زور في نفسه من كلمات غزلات ، وقد صنعها لها وحدها ؟

ومر الشبحان ، فتقلص بسام ، واختبأ ، وحبس أنفاسه . ثم عاد فرفع رأسه ، لقد ضاعت الفرصة . مهبت ولم يكلمها

لا بد من التحدث معها . ولكنه لم يفكر قط فى رفيقتها هذى ولم يحسب لها حساباً ... وخطا خطوات ... واتجه نحوها . فسمع هامساً يهمس فى أذنه : « أنت شاعر ... وأديب .. ! » فرفع ، بلا شعور ، رأسه ، ونفخ صدره ، وامتلأ زهواً . وردد بنفسه : « نعم ... أديب ، لى من سمة المعارف ، فى الشعر ، ما يسهل لى كل عسير . ثم أنا شاعر ... وشعرى رقية للحسان وسحر ... سأحدثها . فإذا أعوزنى الأمر ، نثرت ما حشوت به رأسى ، من أشعار ، كالزهر » .

واندفع ... تاركا عن يمينه صخرته التى كان يجلس إليها ، ثم مشى بحذر مخلف وراءه الطريق الوعرة التى تقوده إلى بستان القرويات الثلاث اللواتى أبغضن الرجال ، فتبادلن ، كما زعموا الحب . ثم عرج فجأة ، فإذا هو وراء الفتاتين ، على بعد أمتار ... لقد أدركهما .

ولكن كيف يبدأ الحديث ؟ هذه مشكلة ثانية ... وأخذ يتذكر ، وقد اطمأن أنه وراءهما ، ما كان زوره فى نفسه . لقد نسى بعض ما زور ... إن فيه : « أرأيت إلى الوردة التى عشقها البلبل ، يازهرتى ، فطاف فى الدنيا يجمع لها اللآلئ ويزينها بها ، ويغنيها فى الصباح والمساء من الغناء ما يبهجها . إنك لأجمل منها عند ما تبسمين ... » ولكنه تلعثم ... ترى أتليق هذه الكلمات ؟ إنها خيالات شاعر يغازل بها الورق ، لا الحسان ... ! ثم ، أتفهم عنه ما يقول . كان يعتقد أن المرأة ليست جديرة بهذا ولكنه كان يجد نفسه مسوقاً نحوها مفتوناً بها ... !

وحاول أن يذكر جملة أخرى ... « أنت يا زهرتى ، بين أنشودة وبنفسجة ، لكالشمس تبدو رقاقة بين غمامتين تضحك للدنيا وتغمرها بالنور ... » فأعجب بما قال وزهى . ولكنه ظن أن أنشودة غائبة ، وأن فى الليل القمر . وإذن ماذا يقول ؟ وتنبه . لقد كادتا تصلان إلى السفح . وها هو ذا طريق القرية يبدو ، بل ها هى ذى دارحستائه ، تلمع سقوفها الحمر ، تحت ضياء القمر ، إنها قريب ، فى رأس الطريق . ونادى من أعماق نفسه : « يا رب ... يا رب ! » وقبض على أصابعه ، وضغط على أسنانه وفار الدم فى وجهه . كيف يحدثها ؟ كيف يبدأ الحديث ؟ وبم يحدثها ؟ وتأفف . ولعن هذه الدراسة الطويلة التى قطع شبابه بها ، ثم هو يجبن عن التحدث إلى فتاة . إنه بارد بليد . ولم يجد شفاء لنفسه غير سباب أرسله إلى أستاذه ورفيقه .

وشعت فى رأسه فكرة فتمسك بها كأنه يخاف أن تفر . بعد أسابيع سيرسل ، وترسل ، للتدريس لقد جمعتهما المهنة . فلماذا لا يتخذ ذلك سبيلا إلى التحدث . ولقد كان يغيظه أن يراها تناجى رفيقتها وهو قريب منها ولا تناجيه . يا ويحهما . كأنهما عاشق وحبيب .

وبلغ السفح ، وهو يمشى على رود . ويئس وفكر فى الرجوع ، وانثالت على رأسه فكر جديدة : « هيا ، لأتعثر عمداً فأتدحرج أمامهما ... عندئذ تقفان ... وعندئذ أحدثها ... » وهم وتشجع ولكنه جبن . لقد خاف أن يتبعثر شعره الذى صففه ورجّله .

وخشى أن تضحكا منه وتهزءا به ، فأجفل ، ووقف ، والفتاتان مسرعتان .

ورآهما وقد بلغتا طريق القرية تهرولان فجمد بصره . وشعر كأن فى عنقه حبلا يشد به نحوهما . فهرول هو أيضاً بلا وعى ، وأخذ وهو يهرول يلوم نفسه ويشجعها ويدفعها أن تحييهما ، فالتحية مفتاح الحديث . وأسرع فى العدو وقد خاف أن يفوته إدراكهما . لقد بلغتا القصر ... هذا القصر الذى زينت جدرانه بالياسمين ، وتدلى فوقه زهر أحمر يسمونه « الزهر الفرحان » . وأسرع ... وجهد نفسه ... وفى عينيه نار ، وفى قلبه نار ... آه ! ليت الطريق تطوى ... وليت قلبه لا يخفق ... ليستطيع إدراكهما ...

وبلغ القصر ، وهو يلهث . فتشجع ، وابتسم . وفى اللحظة التى فتح فيها فاه ليقول بصوت راعش :

— مساء الخير يا آنسة ... مساء الخير ...

كان باب القصر يغلق ... وزهرة الياسمين ، تغيب ...

وأغمض عينيه ، وشحب وجهه ، وأطرق برأسه . ثم مضى وفى عينيه دمعه .

وردد النسيم الهائم فى تلك الليلة تحيته اليائسة ، وتهامس الزهر العارش ... « إنه مسكين ... إنه مسكين ! » .

صلاح الدين المنجد